

تفسير ابن كثير

قال ابن جريج عن مجاهد هذه أول آية نزلت من براءة يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله وأن ذلك من عنده تعالى وبتأييده وتقديره لا بعددهم ولا بعددهم ونبههم على أن النصر من عنده سواء قل الجمع أو كثر فإن يوم حنين أعجبتهم كثرتهم ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئا فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أنزل نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه كما سنبينه إن شاء الله تعالى مفصلا ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده وبإمداده وإن قل الجمع فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين وقد قال الإمام أحمد : حدثنا وهب بن جرير حدثنا أبي سمعت يونس يحدث عن الزهري عن عبيد الله عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [خير الصحابة أربعة وخير السرايا أربعمائة وخير الجيوش أربعة آلاف ولن تغلب اثنا عشر ألفا من قلة] وهكذا رواه أبو داود والترمذي ثم قال هذا حديث حسن غريب جدا لا يسنده أحد غير جرير بن حازم وإنما روي عن الزهري عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلًا وقد رواه ابن ماجه والبيهقي وغيره عن أكثم الجوني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحوه والله أعلم وقد كانت وقعة حنين بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة .

وذلك لما فرغ صلى الله عليه وسلم من فتح مكة وتمهدت أمورها وأسلم عامة أهلها وأطلقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه وأن أميرهم مالك بن عوف بن النضر ومعه ثقيف بكمالها وبنو جشم وبنو سعد بن بكر وأوزاع من بني هلال وهم قليل وناس من بني عمرو بن عامر وعوف بن عامر وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاء والنعم وجاءوا بقضهم وقضيضهم فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في جيشه الذي جاء معه للفتح وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب ومعهم الذين أسلموا من أهل مكة وهم الطلقاء في ألفين فسار بهم إلى العدو فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له حنين فكانت فيه الوقعة في أول النهار في غلس الصبح انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد ثاوروهم ورشقوا بالنبال وأصلتوا السيوف وحملوا حملة رجل واحد كما أمرهم ملكهم فعند ذلك ولى المسلمون مدبرين كما قال الله تعالى وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحو العدو والعباس عمه أخذ بركابها الأيمن وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أخذ بركابها الأيسر يثقلانها لئلا تسرع السير وهو ينوه باسمه E ويدعو المسلمين إلى الرجعة ويقول : [إلي عباد الله إلي

أنا رسول الله [ويقول في تلك الحال : [أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب] وثبت معه من أصحابه قريب من مائة ومنهم من قال ثمانون فمنهم أبو بكر وعمر Bهما والعباس وعلي والفضل بن عباس وأبو سفيان بن الحارث وأيمن بن أم أيمن وأسامة بن زيد وغيرهم Bهم ثم أمر صلى الله عليه وسلم عمه العباس وكان جهير الصوت أن ينادي بأعلى صوته يا أصحاب الشجرة يعني شجرة بيعة الرضوان التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها على أن لا يفروا عنه فجعل ينادي بهم يا أصحاب السمرة ويقول تارة يا أصحاب سورة البقرة فجعلوا يقولون يا لبيك يا لبيك وانعطف الناس فتراجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بغيره على الرجوع لبس درعه ثم انحدر عنه وأرسله ورجع بنفسه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما اجتمعت شذمة منهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم عليه السلام أن يصدقوا الحملة وأخذ قبضة من تراب بعد ما دعا ربه واستنصره وقال [اللهم أنجز لي ما وعدتني] ثم رمى القوم بها فما بقي إنسان منهم إلا أصابه منها في عينه وفمه ما يشغله عن القتال ثم انهزموا فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون وما تراجع بقية الناس إلا والأسرى مجندلة بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا يعلى بن عطاء عن عبد الله بن يسار عن أبي همام عن أبي عبد الرحمن الفهري واسمه يزيد بن أسيد ويقال يزيد بن أنيس ويقال كرز قال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة حنين فسرنا في يوم قائط شديد الحر فنزلنا تحت ظلال الشجر فلما زالت الشمس لبست لأمتي وركبت فرسي فانطلقت إلى رسول الله A وهو في فسطاطه فقلت السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته حان الرواح ؟ فقال : [أجل] فقال : [يا بلال] فثار من تحت سمرة كأن ظلها ظل طائر فقال : لبيك وسعديك وأنا فداؤك فقال [أسرج لي فرسي] فأخرج سرجا دفتاه من ليف ليس فيهما أشر ولا بطر قال فأسرج فركب وركبنا فصاففناهم عشيتنا وليلتنا فتشامت الخيلان فولى المسلمون مدبرين كمال قال الله تعالى : { ثم وليتم مدبرين } فقال رسول الله A [يا عباد الله أنا عبد الله ورسوله] ثم قال : [يا معشر المهاجرين أنا عبد الله ورسوله] قال ثم اقتحم عن فرسه فأخذ كفا من تراب فأخبرني الذي كان أدنى إليه مني أنه ضرب به وجوههم وقال : [شاهد الوجوه] فهزمهم الله تعالى قال يعلى بن عطاء : فحدثني أبناؤهم عن آبائهم أنهم قالوا : لم يبق منا أحد إلا امتلأت عيناه وفمه ترابا وسمعنا صلصلة بين السماء والأرض كإمرار الحديد على الطست الجديد وهكذا رواه الحافظ البيهقي في دلائل النبوة من حديث أبي داود الطيالسي عن حماد بن سلمة به وقال محمد بن إسحاق : حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه جابر بن عبد الله قال : فخرج مالك بن عوف بمن معه إلى حنين فسبق رسول الله A إليه فأعدوا وتهيئوا في مضائق الوادي وأحنائه وأقبل رسول الله A وأصحابه حتى

انحط بهم الوادي في عماية الصبح فلما انحط الناس ثارت في وجوههم الخيل فشدت عليهم وانكفأ الناس منهزمين لا يقبل أحد على أحد وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين يقول : [أيها الناس هلموا إلي أنا رسول الله ﷺ أنا رسول الله ﷺ أنا محمد بن عبد الله ﷺ] فلا شيء وركبت الإبل بعضها بعضا فلما رأى رسول الله ﷺ أمر الناس قال : [يا عباس اصرخ يا معشر الأنصار يا أصحاب السمرة] فأجابوه لبيك لبيك فجعل الرجل يذهب ليعطف بغيره فلا يقدر على ذلك فيقذف درعه في عنقه ويأخذ سيفه وقوسه ثم يؤم الصوت حتى اجتمع إلى رسول الله ﷺ منهم مائة فاستعرض الناس فاقتلوا وكانت الدعوة أول ما كانت بالأنصار ثم جعلت آخرها بالخزرج وكانوا صبراء عند الحرب وأشرف رسول الله ﷺ في ركابه فنظر إلى مجتلد القوم فقال : [الان حمي الوطيس] قال : فوالله ما راجعه الناس إلا والأسارى عند رسول الله ﷺ ملقون فقتل الله ﷻ منهم من قتل وانهزم منهم ما انهزم وأفاء الله ﷻ على رسوله أموالهم وأبناءهم .

وفي الصحيحين من حديث شعبة عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب Bهما أن رجلا قال له : يا أبا عمارة أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين ؟ فقال : لكن رسول الله ﷺ لم يفر إن هوازن كانوا قوما رماة فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا فأقبل الناس على الغنائم فاستقبلونا بالسهم فانهزم الناس فلقد رأيت رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث أخذ بلجام بغلته البيضاء وهو يقول : [أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب] قلت : وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة إنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى وقد انكشف عنه جيشه وهو مع هذا على بغلة وليست سريعة الجري ولا تصلح لفر ولا لكر ولا لهرب وهو مع هذا أيضا يركضها إلى وجوههم وينوه باسمه ليعرفه من لم يعرفه صلوات الله ﷻ وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين وما هذا كله إلا ثقة بالله ﷻ وتوكلا عليه وعلما منه بأنه سينصره ويتم ما أرسله به ويظهر دينه على سائر الأديان ولهذا قال تعالى : { ثم أنزل الله ﷻ سكينته على رسوله { أي طمأنينته وثباته على رسوله { وعلى المؤمنين { أي الذين معه { وأنزل جنودا لم تروها { وهم الملائكة كما قال الإمام أبو جعفر ابن جرير حدثني الحسن بن عرفة قال حدثني المعتمر بن سليمان عن عوف بن أبي جميلة الأعرابي قال سمعت عبد الرحمن مولى بن برثن حدثني رجل كان مع المشركين يوم حنين قال لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين لم يقوموا لنا حلب شاة قال : فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم في آثارهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء فإذا هو رسول الله ﷺ قال : فتلقانا عنده رجال بيض حسان الوجوه فقالوا لنا شأهت الوجوه ارجعوا قال فانهزمنا وركبوا أكتافنا فكانت إياها .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي : أنبأنا أبو عبد الله ﷻ الحافظ حدثني محمد بن أحمد بن بالويه حدثنا إسحاق بن الحسن الحربي حدثنا عفان بن مسلم حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا الحارث بن حصيرة حدثنا القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه قال : قال ابن مسعود B :

كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فولى عنه الناس وبقيت معه في ثمانين رجلا من المهاجرين والأنصار قدما ولم نولهم الدبر وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة قال : ورسول الله ﷺ على بغلته البيضاء يمضي قدما فحادث بغلته فمال عن السرج فقلت : ارتفع رفعك الله ﷻ قال : [ناولني كفا من التراب] فناولته قال : فصر به وجوههم فامتلت أعينهم ترابا قال : [أين المهاجرون والأنصار ؟] قلت : هم هناك قال : [اهتف بهم] فهتفت بهم فجاءوا وسيوفهم بأيماهم كأنها الشهب وولى المشركون أدبارهم ورواه الإمام أحمد في مسنده عن عفان به نحوه وقال الوليد بن مسلم : حدثني عبد الله بن المبارك عن أبي بكر الهذلي عن عكرمة مولى ابن عباس عن شيبه بن عثمان قال : لما رأيت رسول الله ﷺ يوم حنين قد عري ذكرت أبي وعمي وقتل علي وحمزة إياهما فقلت اليوم أدرك تأري منه قال : فذهبت لأجيئه عن يمينه فإذا أنا بالعباس بن عبد المطلب قائما عليه درع بيضاء كأنها فضة يكشف عنها العجاج فقلت : عمه ولن يخذله قال فجئته عن يساره فإذا أنا بأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب فقلت : ابن عمه ولن يخذله فجئته من خلفه فلم يبق إلا أن أسوره سورة بالسيف إذ رفع لي شواط من نار بيني وبينه كأنه برق فخفت أن تمحشني فوضعت يدي على بصري ومشيت القهقري فالتفت رسول الله ﷺ وقال : [يا شيبه يا شيبه ادن مني اللهم أذهب عنه الشيطان] قال : فرفعت إليه بصري ولهو أحب إلي من سمعي وبصري فقال : [يا شيبه قاتل الكفار] رواه البيهقي من حديث الوليد فذكره .

ثم روي من حديث أيوب بن جابر عن صدقة بن سعيد عن مصعب بن شيبه عن أبيه قال : خرجت مع رسول الله ﷺ يوم حنين والله ما أخرجني إسلام ولا معرفة به ولكنني أبيت أن تظهر هوازن على قريش فقلت وأنا واقف معه : يا رسول الله ﷺ إني أرى خيلا بلقا فقال : [يا شيبه إنه لا يراها إلا كافر] فضرب بيده على صدري ثم قال : [اللهم اهد شيبه] ثم ضربها الثانية ثم قال : [اللهم اهد شيبه] ثم ضربها الثالثة ثم قال : [اللهم اهد شيبه] قال : فوالله ما رفع يده عن صدري في الثالثة حتى ما كان أحد من خلق الله ﷻ أحب إلي منه وذكر تمام الحديث في التقاء الناس وانهزام المسلمين ونداء العباس واستنصار رسول الله ﷺ حتى هزم الله تعالى المشركين قال محمد بن إسحاق : حدثني والدي إسحاق بن يسار عن حدثه عن جبير بن مطعم أنه قال : إنا لمع رسول الله ﷺ يوم حنين والناس يقتتلون إذ نظرت إلى مثل البجاد الأسود يهوي من السماء حتى وقع بيننا وبين القوم فإذا نمل منثور قد ملأ الوادي فلم يكن إلا هزيمة القوم فما كنا نشك أنها الملائكة وقال سعيد بن السائب بن يسار عن أبيه قال : سمعت يزيد بن عامر السوائي وكان شهد حنيننا مع المشركين ثم أسلم بعد فكننا نسأله عن الرعب الذي ألقى الله ﷻ في قلوب المشركين يوم حنين فكان يأخذ الحصاة فيرمي بها في الطلست فيطن فيقول كنا نجد في أجوافنا مثل هذا وقد تقدم له شاهد من حديث يزيد بن أبي أسيد قال : أعلم وفي صحيح مسلم

عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق أنبأنا معمر عن همام قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال : [نصرت بالرعب وأوتيت جوامع الكلم] ولهذا قال تعالى : { ثم أنزلنا سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودنا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين } وقوله : { ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم } قد تاب الله على بقية هوازن فأسلموا وقدموا عليه مسلمين ولحقوه وقد قارب مكة عند الجعرانة وذلك بعد الواقعة بقريب من عشرين يوما فعند ذلك خيروهم بين سبيهم وبين أموالهم فاختاروا سبيهم وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبي وامرأة فردده عليهم وقسم الأموال بين الغانمين ونفل أناسا من الطلقاء لكي يتألف قلوبهم على الإسلام فأعطاهم مائة من الإبل وكان من جملة من أعطى مائة مالك بن عوف النصري واستعمله على قومه كما كان فامتدحه بقصيدته التي يقول فيها : .

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله في الناس كلهم بمثل محمد .
أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى ومضى تشأ يخبرك عما في غد .
وإذا الكتيبة عردت أنيابها بالسهمي وضرب كل مهند .
فكأنه ليث على أشباله وسط المباءة خادر في مرصد